



مقدمة:

ما زلت أحاول احترام النصيحة، والتمادى فى استعمال مساحة السماح، بأن أعيد، ولا أزيد، وأنا أحاول أن أختصر بعض ما اكتشفت أنه طال حتى غمض!!

وبعد

حين أعدت قراءة نشرة أمس، وكنت أحسب أنني وجدت مفتاح التواصل مع من يفضل بقراءتى: وهو أن أركز رسالتى إلى من يهمه الأمر بتقديم "المختصر المفيد"، دون إطناب أو شرح، رحت أتقمص القارئ الطيب الذى صدقنى فحضرنى ما يلى:

يجوز أنه استطاع أن يستقبل ما جاء فى "أولا" (نشرة أمس)

باعتبار المريض الفرد هو ممثل "الظاهرة البشرية"... الخ،

ولكن لا بد أنه اتوقف طويلا عند تعبير يطلب من الطبيب

"تنشيط مستويات وعيه" بالإضافة إلى علمه - دون قصد إرادى - بمجرد انتمائه إلى الحياة كما

وهينا الله إياها."

كيف بالله عليكم تصل هذه الجملة إلى طبيب نفسى مبتدئ، يحاول - بصدق وحسن نية، وهو أجهز لتلقى الجديد ممن هو أكبر!! - كيف يصدق ما أقوله له هكذا، ثم يحاول أن يمارسه؟ إنه إذا قرأ هذه الكلمات وهو جالس إلى مكتبه لا يمكن أن يستوعب ما جاء بها، لكننى أعتقد أنه إذا



أتاحت له فرصة متابعة العصافير وهى تمر أمام نافذته، وشيئها مفتوح - كما أفعل فى صباحات كثيرة بالصدفة - فقد يلاحظ ما ألاحظه كل صباح تقريبا، وكيف أنه لا بد أن الذى يجمع العصافير وهى تسبحة معا هو "وعى مشترك"، وقد لاحظت - مع التركيز والفرحة - أنه إذا انفصلت عصفورة عن المجموعة (لست أدري لماذا؟) فإنها تدور وتدور وترجع إليها (لست واثقا هى أم أخرى) يحدث ذلك منها "دون قصد إرادى"، لكن - غالبا - هو الذى يمنع انقراضها بفضل الله، فتظل مع نوعها - العصافير - تقاوم الانقراض بهذا التمازج مع الوعى الجمعى "فتبقى" معنا نحن البشر ضمن الواحد فى الألف الذين بقوا من خلال هذا الوعى الجمعى ضد احتمالات الانقراض.

مرة أخرى الذى نجح ألا ينقرض هو واحد فى الألف من كل الأحياء عبر تاريخ الحياة⁽¹⁾ من بين هذه الأحياء توجد تلك العصفورة التى تنفصل لتتصل، كما يوجد واحد من البشر الذى يكتب هذه الكلمات الآن وهو يأمل مع من يستمع إليه أن يقاوم الانقراض أيضا.



أركز رسالتى إلى من يهمه الأمر بتقديم "المختصر المفيد"، دون إطناب أو شرح

مرة أخرى الذى نجح ألا ينقرض هو واحد فى الألف من كل الأحياء عبر تاريخ الحياة (1) من بين هذه الأحياء توجد تلك العصفورة التى تنفصل لتتصل، كما يوجد واحد من البشر الذى يكتب هذه الكلمات الآن وهو يأمل مع من يستمع إليه أن يقاوم الانقراض أيضا

أنا لا أتردد أن أشرح لطلبتى الذين لا يشاهدون أسراب أو حتى فرادى العصافير، لا أتردد أن أشرح لهم نفس الفكرة بمثال مألوف ولو أنه مقزز - ولا مؤاخذه - لأواصل لهم كيف أن تنشيط "الوعى البيئشخصى" إلى "الوعى الجمعى": هو من أعظم ميكانيزمات البقاء، أشرح لهم ذلك بأن أذكرهم بمنظر الذباب وهو يطير فوق صفائح القمامة، ولا أجد حرجا فى ذلك وأنا أتذكر قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"، وأنصحهم أن يتأملوا بقدر من السماح الطيب، بعد ضبط غرائز القرف والاشمئزاز، أن يتأملوا عددا من الذباب وهو يحوم حول صفائح قمامة "معا"، يرتشق منها ما تيسر ليبقيه حيا ضمن الواحد فى الألف، كما أذكره أن يتذكر معى - بعد إزاحة الاشمئزاز كما اتفقنا - أن هذا الموقف يجمع مجاميع الذباب عادة على مثل هذه الوليمة فى نشاط وذكاء ملحوظين، وأنه (الزميل الذى اشرح له) لو تقدم وهشَّ الذباب من على القمامة ولو مرة واحدة، فإن الذباب سوف يبتعد ليعود لحفاظا على بقائه!

الروح ذاتية التنظيم

أرجع الآن لحظة إلى دانيال دينيت فى كتابه "أنواع العقول (2) "حيث يقول: .."نحن أنفسنا، مثل كل الحيوانات الأخرى، لدينا روح مغذية - منظمة ذاتية التنظيم والحماية - تتميز تماما عن جهازنا العصبى كما أنها أقدم منه: وهى تتكون من جهازنا الأيضى، وجهازنا المناعى وأجهزة أخرى معقدة بما يذهل، وتعمل من أجل الترميم الذاتى والحفاظ صحيا على أجسادنا. وخطوط الاتصال التى تستخدمها هذه الأجهزة القديمة لا تكون من الأعصاب وإنما من الأوعية الدموية." انطلاقا من هذه المعلومة (الفرض) ينبعث احترامنا لآليات البقاء والاستمرار لكل الأحياء التى بقيت معنا ضمن الواحد فى الألف، وانطلق أنا إلى فروضى مطمئنا إلى القياس وكيف أن المخ يعيد تشكيل نفسه من خلال الإيقاعحيوى باستمرار، كما يتحدث دينيت عن التنظيم الذاتى والحماية. والآن، إذا كان هذا القياس يبين سلوك العصافير، ثم حتى الذباب وبين ما أحاول أن أطلبه منك عزيزى القارئ، يزعجك وأنت لا تملك القدرة والأدوات واللغة على دحضه، فإن من حقك (1) ألا تفهمه أصلا (2) أو أن ترفضه دون إيداء أسباب، (3) أو أن تتكره وتتساه فوراً دون أدنى شعور بالشفقة على كاتبه، مع الاستعداد لاتهامه بالجهل أو على أحسن الفروض باللاعلمية، أو الشطح غير المسئول أو حتى الجنون!!، وبما أنك أرق وأطيب من ذلك كله: فهو "الصمت!"



فضل العلاج الجمعى وحركية الوعى المتمادى فى الامتداد

الذى وصلنى من خلال العلاج الجمعى أساسا أننى، ومن استطاع من زملائى الأصغر الذين يتدربون معى (أو يشاهدونا) وقد عشنا سويا - ما يقرب من نصف قرن - قدرا مناسباً من التواصل بأقل قدر من الالتزام بجدول ضرب حرفية اللغة السلطوية المرموزة، طبعا دون إهمالها أو التنازل عنها، وربما هذا هو ما فسر لى عنوان كتاب دانيال دينيت الفرعى "نحو محاولة فهم الوعى" وقد زاد من ثراء هذه التجربة فى العلاج الجمعى هو أن المشاركين فيها من المرضى كانوا - ومازالوا - عينة عشوائية من الطبقة المطحونة والمتوسطة (الأدنى غالبا) متواضعة التعليم - أو بدونها إطلاقا - نادرة الإطلاع، لكننا جمعيا وبفضل قواعد هذا النوع من العلاج الجمعى المتمركزة أساسا فى "هنا والآن" وإلى درجة أقل قاعدة، من غير سؤال ولا نصيحة "استطعنا من خلال تنشيط الوعى

لكننا جمعيا وبفضل قواعد هذا النوع من العلاج الجمعى المتمركزة أساسا فى "هنا والآن" وإلى درجة أقل قاعدة "من غير سؤال ولا نصيحة" استطعنا من خلال تنشيط الوعى البيئشخصى المتشابك أن نستوعب ما يجرى، ونحن نتواصل ونتفاعل فيتخلق وسطنا الوعى الجمعى ونكاد نراه ممتدا إلى الدائرة الأوسع غير المشاركة إلا بالمشاهدة، ونحن نأمل أن يمتد حدسنا حتى يصل لحلمنا كحدا إليه

إن العقائق المعيشة التى لا يمكن تقييما ولا الدفاع عنها إلا من واقع نتائج الخبرة، ويصعب وصفها بأنها علم بل أنها لا ترقى حتى إلى درجة النظرية، هى التى يرفضها الذى امتداد على التفكير السببى وطلب الأدلة والمقارنة

البيشخصى المتشاك أن نستوعب ما ىجرى، ونحن نتواصل وتفاعل فیتخلق وسطنا الوعى الجمعى ونكاد نراه ممندا إلى الدائرة الأوسع غیر المشاركة إلا بالمشاهدة، ونحن نأمل أن یمتد حدسنا حتى ىصل علمنا كدحا إليه.

وبعد

إن الحقائق المعیشة التى لا یمكن تقییمها ولا الدفاع عنها إلا من واقع نتائج الخبرة، وىصعب وصفها بأنها علم بل أنها لا ترقى حتى إلى درجة النظریة، هى التى یرفضها الذى اعتاد على التّفكیر السببى وطلب الأدلة والمقارنة، لكن أیضا إذا كنا نشاهد حولنا لو أحسنا احترام الأّحیاء فى سعیها للبقاء – مع قدر كافٍ من إبداع التلقی (ولا أقول الخیال) ، ما ىوازیها، فإن لنا أن نستلهم من ذلك أن لهذا العلاج نتائج إیجابیة دون أدلة أو مقارنة مستحیلة، وهى ”الشفاء“ (إلى البقاء) بمعنى إعادة التّشكیل للمخ لإطلاق مسیره النمو (ولیس مجرد زوال الأعراض) إذا حدث ذلك وهو ىحدث على الأقل أسبوعیا خلال ما ىقرب من نصف قرن، إذا فإن الأمر ىحتاج إلى إعمال النظر (لو سمحتم).

تنبیه آخر من نفس الكتاب:

ىقول دانیال دینیة إن الإنسان حین ىفترض أن (وىعامل) كل ما هو دونه على أنه لیس له عقل (مثله) إنما یرتكب خطأ علمیا بل – على حد قوله: ”یتخذ موقفا علویا لا أخلاقیا غیر مبرّر.“ ولا أجرؤ أن أقول أن موقفا موازیا ىكاد ىصلنى من الذین ىصرون أن تصل لهم هذه الخبرة بالألفاظ، فإن عجزنا فجزاؤنا الرفض أو الصمت، مع تراید احتمالات وصف ما نحاوله بأنه لیس علما ما دام لا یمكن إثباته بطرائقهم.

ثم إن كتاب دانیال دینیة كان له عنوان فرعى ىقول: ”نحو محاولة فهم الوعى“ وبما أننى اقتربت أكثر من ثقافتنا التلقائیة الأّبسطة التى لم تتشوه بالتعلیم الغبى ولا بالقراءة السطحیة أو القراءة الوصیة ووجدنى أتعرف على ثقافتنا فى مساحات رائعة من حركیة الوعى على كل المستویات من أول الوعى الشّخصى فالبیشخصى إلى الوعى المطلق إلى الغیب بعجز شدید أن استعمل لغة تفید ما أرىد تحدیدا، وربنا ىستر.

وبعد

أظن قد ىكون من المناسب أن أدع عمق ما وصلنى من ثقافة ناسنا البسطاء فیمما یتعلق بالوعى (امتدادته والإیمان والشفاء)، إلى نشرة تالیة إن استطعت، أعتقد أنه على صدقهم وتلقائیتهم سوف تكون أصعب. أو كما ترون.

“ – [1] الإنقراض جینات سیئة أم حظ سیء؟“ تألیف: دافید م. روب، ترجمة: مصطفى ابراهیم فهمى، المشروع القومى للترجمة المجلس الأعلى للثقافة، 1998.

[2]- Kinds of Minds Towards Understanding of Consciousness Daniel C. Dennet 1996

الكتاب المترجم صادر عن ”المكتبة الأكادیمیة“ ترجمة د. مصطفى فهمى ابراهیم، نشر بعنوان ”تطور العقول!!“ – القاهرة – 2003

إن الإنسان حین ىفترض أن (وىعامل) كل ما هو دونه على أنه لیس له عقل (مثله) إنما یرتكب خطأ علمیا بل – على حد قوله: ”یتخذ موقفا علویا لا أخلاقیا غیر مبرّر.“ دانیال دینیة

وجدنى أتعرف على ثقافتنا فى مساحات رائعة من حركیة الوعى على كل المستویات من أول الوعى الشّخصى فالبیشخصى إلى الوعى المطلق إلى الغیب إلى، ولكننى حین اقتربت من هذه المنطقة شعرت بعجز شدید أن استعمل لغة تفید ما أرىد تحدیدا، وربنا ىستر



مؤسسة العلوم النفسیة العربیة
معنا ... نذهب أبعد